مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب في مارس سنة ١٩٤٧م، وقد ظهرت بعدها بحوث ودراسات قيِّمة عن عصر محمد علي؛ لمناسبة الذكرى المئوية لإبراهيم باشا سنة ١٩٤٨م، والذكرى المئوية لمحمد علي الكبير سنة ١٩٤٩م، وراجعتها جميعًا فلم أرَ فيها تعارضًا مع ما كتبت، ورأيت فيها تفصيلًا لبعض ما أجملت؛ أمَّا الخطوط الرئيسية فهي هنا وهناك متطابقة متماثلة، وهذا ما جعلني أحرص على أن لا أزيد شيئًا على الطبعة الثانية؛ اللّٰهم إلا إضافات يسيرة حرصت على إثباتها في هامش الكتاب تحت عنوان «هامش الطبعة الثالثة».

وأود أن أنوه إلى أنَّ هذا الكتاب يتناول «عصر محمد علي»، ويشتمل على تاريخ مصر القومي في عهده؛ أي منذ سنة ١٨٠٥م. أمَّا نشأته وتاريخ حياته، وتطور الحوادث التي انتهت بولايته حكم مصر، فقد فصَّلنا الحديث عن ذلك كله في الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» إذ أفردت (الفصل الثالث عشر) منه للكلام عن «نتائج ظهور العامل القومي على مسرح الحوادث السياسية» من جلاء الفرنسيين عن البلاد سنة ١٨٠١م إلى ارتقاء محمد علي أريكة مصر سنة ١٨٠٥م.

هذا؛ وقد أشرت في مقدمة الطبعة الثانية إلى سلسلة هذه المجموعة، وألمعت في ختامها إلى أنه لم يبق منها إلا كتاب «في أعقاب الثورة المصرية»، وقد يسَّر الله لي إخراج الجزء الأول منه في يولية سنة ١٩٤٧، والجزء الثاني في نوفمبر سنة ١٩٤٩، والأول يشتمل على تاريخ مصر القومي من إبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧، ويحتوي الثاني على تاريخ مصر القومي من وفاة سعد إلى وفاة الملك فؤاد الأول في ٢٨ إبريل سنة ١٩٣٦.

يناير سنة ١٩٥١م

عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الثانية

كان عنوان هذا الكتاب عندما ظهر لأول مرة «تاريخ الحركة القومية» -الجزء الثالث- عصر محمد علي، وإذ صار في سلسلة تاريخ الحركة القومية عصرًا قائمًا بذاته، فقد جعلته كتابًا مستقلًّا، عنوانه «عصر محمد علي»، فهو هو الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية كما تراه في مقدمة الطبعة الأولى، وقد سرت على هذا النحو فيما أصدرته بعد ذلك من هذه السلسة، فأخرجت كتاب «عصر إسماعيل» في جزءين؛ يتناول الأول عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل، ويشتمل الثاني على ختام الكلام عن عهد إسماعيل، يليه كتاب «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي»، ثم كتاب «مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال» ويتناول فترة الانحلال القومي الذي أصاب البلاد في السنوات العشر الأولى للاحتلال؛ من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٨٩٢م، يليه كتاب «مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية» وفيه تاريخ البعث الوطني من سنة ١٨٩٢م إلى سنة ١٩٠٨م، فكتاب «محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية» ويشتمل على تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩، وأخرجت في العام الماضي كتاب «ثورة سنة ١٩١٩» ويتضمن تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١.

ولم يبق إلا كتاب «في أعقاب الثورة المصرية»، وبه تكمل هذه المجموعة، والحمد لله أولًا وأخيرًا.

مارس سنة ١٩٤٧

عبد الرحمن الرافعي

openkan.com

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الجزء الثالث من «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر». وهو يتناول الكلام عن عصر محمد علي.

تضمن الجزء الأول من الكتاب ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث، وبيان الدور الأول من أدوارها، وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر، واشتمل الجزء الثاني على تنمية وقائع المقاومة الشعبية إلى انتهاء الحملة الفرنسية، وتطور الحياة القومية بعد انتهاء تلك الحملة، إلى ارتقاء محمد علي على أريكة مصر بإرادة الشعب، وقد قلنا في بيان هذه الحقيقة: «إن محمد علي هو أول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الحوادث السياسية، وأنه من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية، ودور من أدوارها التاريخية، اقترن ظهوره بظهور العامل القومي، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به واليًا مختارًا على مصر، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر بَنَّاء في صَرْح القومية المصرية».

فموضوع الجزء الثالث هو تفصيل الكلام عن «عصر محمد علي»، وكيف كان دورًا من أدوار الحركة القومية.

والحركة القومية كما عيناها في مقدمة الكتاب وجعلناها أساس البحث والتدوين، هي الجهود التي بذلتها الأمة في سبيل تحرير مصر من النير الأجنبي، وفك قيود الاستبداد عنها، وتقرير حقوق الشعب السياسية، هي التضحيات التي قدمتها والآلام التي احتملتها في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة.

وعلى هذا الاعتبار يجب أن نعد عصر محمد علي صحيفة مجيدة من صحائف الحركة القومية؛ ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة، فيه تحقق الاستقلال القومي وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به، فيه تأسس الجيش المصري، والأسطول المصري،

والثقافة المصرية، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية في البلاد، فهو عصر استقلال وحضارة وعمران.

إنَّ استقلال مصر كان ثمرة الحروب التي خاضت غمارها في عصر محمد علي، تلك الحروب التي بذلت فيها الأمة أرواح عشرات الآلاف من زهرة أبنائها، من أولئك الأبطال المجهولين الذين جاهدوا واستشهدوا في ميادين القتال، وسقوا أديم الأرض بدمائهم، في ربوع مصر والسودان، وفي صحارى جزيرة العرب، وجبال كريت والموره، وبطاح سورية والأناضول، وفي قاع اليمِّ بمياه اليونان، أو على سواحل مصر والشام، فلا جرم أن كان الجيل الذي عاش في عصر محمد علي هو أكثر الأجيال عملًا وتضحية في سبيل تكوين مصر المستقلة، فعلى أكتافه وبجهوده وضحاياه قام صرح الاستقلال عالي الذرى، وهو الذي نهض بالأعمال الأولى لحضارة مصر وعمرانها؛ فشقَّ الترع، وأقام القناطر والجسور، وشاد المدارس والمعاهد، وبنى العمائر والدواوين والقصور، وأنشأ الموانئ ودور الصناعة (الترسانات)، واستحدث المعامل، وشيد القلاع والاستحكامات، وبذل في سبيل تلك المنشآت راحته وحياته، ويكفيه فضلًا في ميدان التضحية أنه أنشأها وبناها عاملًا على السخرة، دون أن ينال على جهوده أجرًا ولا جزاء، ولا شكورًا، وأن عشرات الآلاف من بنيه قد ماتوا تحت أعباء المجهودات المضنية التي احتملوها في سبيل إتمام تلك الأعمال المجيدة، فإذا قارنت بين جهود ذلك الجيل وتضحياته، وما بذلته الأجيال المتعاقبة من بعده إلى اليوم، حكمت من غير تردد أنه أكثر الأجيال بذلًا ومساهمة في أعباء الجهاد القومي، وأكثرها تضحية بالنفس والروح والمال في سبيل استقلال مصر وعمرانها، فهو جديرٌ بأن تنحني الأجيال المصرية احترامًا لذكراه، وتقديرًا لفضله؛ لأنه عمل لها جميعًا، وبذل لها راحته ودمه وحياته، واحتمل ما احتمل من جهد وحرمان ليعبِّد لها الطريق كي تجني ثمار جهوده وتضحياته وآلامه.

والحقيقة البارزة التي تخلص لك من إنعام النظر في تاريخه أن عبقرية محمد علي يرجع إليها الفضل الكبير في تنظيم ذلك الجهاد واستثماره وتوجيهه إلى خير مصر وعظمتها، كما أن مواهب الأمة المصرية وحسن استعدادها للتقدم، وماضيها في الحياة القومية، كل أولئك كان مادة الاستجابة لدعوة محمد علي، ومن جميعها تَكَوَّن الفَلك النوراني لتلك النهضة التي سطعت شمسها في عصره، فلو أنه تولى الحكم في بلدٍ آخر من بلدان السلطنة العثمانية وقتئذ، لدفنت فيه عبقريته، ولما استطاع أن يشيد ذلك الملك الضخم، ولا أن ينهض بتلك المشروعات والأعمال الجليلة، ولكانت نهايته لا تختلف كثيرًا عن خاتمة الباشوات الذين شقُّوا عصا الطاعة على السلطنة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر؛ ولكن تأييد الشعب له، ومناصرته إياه عند اشتداد الأزمات، كان لها الفضل الأكبر في ثبات ملكه وتغلبه على الدسائس والعقبات التي اعترضته في طريقه، وحسبك تبيانًا لهذه الحقيقة أن تلقي نظرة على مباحث هذا الجزء، وأن ترجع إلى الفصول التي أفردناها للكلام عن الجيش والأسطول وأعمال العمران؛ تجد أن على سواعد المصريين قد قام ذلك الملْك العريض وتمَّت تلك المنشآت العظيمة، وأنَّ محمد علي لم يستطع إنشاء الجيش النظامي من العناصر غير المصرية التي كانت تتألف منها القوة الحربية في أوائل حكمه؛ لِمَا فطرت عليه من التمرد والفوضى، ولم يرفق إلى تأسيس ذلك الجيش الذي تفخر فيه مصر في تاريخها الحديث إلا بعد أن ألفه من صميم المصريين.

إنَّ مفخرة الجيل الذي عاش في عصر محمد علي أنه حقق لمصر استقلالها، وألف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن، فله فضل تحقيق تلك الوحدة التي كانت وبقيت على مدى السنين من أقدس مطالب القومية المصرية، ولئن اعترض ذلك الاستقلال قيود حالت دون جعله استقلالًا تامًّا، فلم يكن ذلك عن تقصير من الجهاد؛ بل لأن الدول الأوربية قد تألبت على مصر بتحريض السياسة الإنجليزية، فحرمتها ثمرة انتصاراتها، وهذا الاستقلال مع ما اعترضه من قيود لا يزال مفخرة عصر محمد علي؛ لأن الجيل الذي حققه واستخلصه وبذل في سبيله ما بذل من جهود

وتضحيات، قد دافع عنه وتركه للأجيال المتعاقبة سليمًا من الأذى؛ لكنها بدلًا من أن تنهض بالدفاع عنه وتصل به إلى غايته من الاستقلال التام، أو تحتفظ به كما هو وتصونه بالمهج والأرواح، قد تهاونت فيه، وقصرت في الذود عنه، حتى رزئت البلاد بالاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢م، فتصدع البناء الذي أقيم في عصر محمد علي.

ويكفينا تقديرًا لجهاد الجيل أو الجيلين اللذين أدركا ذلك العصر، إن إنجلترا حاولت في خلاله احتلال مصر مرتين؛ فالمرة الأولى سنة ١٨٠٧م حين جردت عليها حملتها المعروفة بـ«حملة الجنرال فريزر»، فكان نصيبها الإخفاق والهزيمة في (رشيد) و(الحماد) مما اضطرها إلى الجلاء عن البلاد، كما تراه مبسوطًا في الفصل الثاني، والمرة الثانية سنة ١٨٤٠م بعد ما فازت مصر على تركيا في معركة (نصيبين)، فألبت إنجلترا عليها الدولة الأوربية واتفقت وحلفاءها على إذلالها وجردت عليها أساطيلها في سورية ومصر، ومع أنها استعانت عليها بحلفائها فإن كل ما أصابت منها أن حرمتها فتوحاتها وأرجعتها إلى حدودها الأصلية؛ لكنها أخفقت في إدراك مطامعها الاستعمارية في مصر، وعبثًا أنفذت أسطولها إلى مياه الإسكندرية بقيادة الكومودور «نابييه» Napier يتهددها ويتوعدها بالاحتلال، فلم يستطع أن ينزل جنوده إلى أرض الكنانة، إذ أدرك أن لها جيشًا قويًّا يحمي الذمار ويدفع الغارة ويدحر الأعداء، فقارن بين موقف الكومودور «نابييه» سنة ١٨٤٠م وموقف الأميرال «سيمور» سنة ١٨٨٢م حينما أرسلته إنجلترا إلى مياه الإسكندرية أثناء الحوادث العرابية، وكيف سهل عليه أن يعبث باستقلال مصر؛ إذ آنس منها ضعفًا وتخاذلًا، فاحتل الجنود الإنجليز أرض مصر، ولم يلقوا بها المقاومة التي لقيها نابليون سنة ١٧٩٨م، وكليبر سنة ١٨٠٠، و«منو» سنة ١٨٠١م، و«فريزر» سنة ١٨٠٧، و«نابييه» سنة ١٨٤٠، فمن هذه المقارنة يتبين لك فضل الجيل الذي عاش في عصر محمد علي، ومبلغ ذوده عن الاسقلال، وحسن بلائه في الدفاع عن الذمار.

فلجهاد هذا الجيل وكفاحه في سبيل مصر خصصنا الجزء الثالث من الكتاب، أقدمه لمواطني الأعزاء، سائلًا من الله الهداية والتوفيق، وعليه سبحانه الاعتماد والتُّكلان.

obeikan.com

للذكرى

وإذْ يوافق اليوم تمام الحول الثالث على وفاة فقيد الوطن المرحوم «أمين بك الرافعي»، فإلى روحه الطاهرة المستقرة في الرفيق الأعلى أرسل تحيات الذكرى والوفاء، فسلامٌ عليك يا أمين في أعلى عِليين، سلامٌ عليك من قلوب لا تنسي جهادك في سبيل المثل الأعلى، سلامٌ عليك ما كرَّت الأعوام وتعاقبت الأجيال، ولتُخلد ذكراك على الدهر ما بقي في الدنيا وفاء وما ذُكِر الإخلاص والمخلصون.

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠م

عبد الرحمن الرافعي

obeikan.com

محمد على

مؤسس الدولة المصرية الحديثة وباعث نهضتها واستقلالها

(١٧٦٩ - ١٨٤٩)